مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ المجلد ١١ (العددان ١و٢)١٤٠٩-١٩٨٩م

الطيّب صالح " موهبة خاصة "
" دراسة في أدبه "

الدكتور فيصل سماق
مدرس في
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة دمشق

تجول هذه الدراسة في رحاب بعض اعمال الكاتب الروائي السوداني " الطيب صالح " وتعالج ثلاث قضايا في نتاج هذا الكاتب العربي ،وما يرتبط بها ،او يتفرع عنها ، او يواجهها من اوضاع حياتية وظروف اجتماعية ومواقف انسانية ..
وتقف عند بعض اساليب الكاتب في اعماله الروائية المعروفة .

ان المعلومات عن الطيب صالح الذى ما زال يعيش بيننا يسيره ،فنحن لانجد في بحثنا عن سيرته سوى نتف متفرقة ،فهو من مواليد شمال السودان عام (١٩٢٩) ،عاش طفولته وفتوته هناك ،واكمل دراسته الجامعية في الخرطوم ليحصل على اجازة في العلوم ، ثم انتقل الى لندن واكمل تحصيله العالي في الشؤون الدولية ،عمل هناك في الاذاعة البريطانية وترأس فيها قسم الدراما ،وعاد الى السودان وعمل مديرا للاذاعة لفترة محددة ،وهو متزوج من امرأة انكليزية يقال انها قريبة من عالمنا العربي ، انجب منها ثلاث بنات ،وقد الف اول قصة عام (١٩٥٣) وهي قصة نخلة على الجدول" .
هذا كل مايعرف عن حياته الخاصة ، اما بالنسبة لاعماله الادبية فاني اكاد استطيع القول اني استطعت التعرف اليها وهي " دومة ود حامد " و " عرس الزين " و " موسم الهجرة الى الشمال و " بندر شاه " بجزأيها " ضوء البيت و " مريود " . وبعد ان توثقت صلتي بهذا الانتاج ،وتعمقت معرفتي فيه ألفيت نفسي اقف امام اعمال عظيمة احتلت مكانتها في ميدان الادب العربي المعاصر وبدأت تشق طريقها بما توفر لها عن مقومات القوة والابداع كي تحتل مكانة بارزة في الادب العالمي ولم لا والطيب صالح هو مبدعها ؟ انه الموهبة الفذة التي صقلت وغذت قدر المستطاع بالثقافة العربية قديمها وحديثها وعايشت الثقافة الغربية ،واطلعت على التراث الغربي وتعرفت على سلوك روادها وحياتهم ،ومن هنا استطاع (الطيب صالح) المزاوجة بين الثقافة العربية والغربية ليولّد اعماله العملاقة التي نحن بصددها مستخدما واقعه خير استخدام . فهو يجعل من شمال السودان مسرحا لاعماله مختارا نماذجه الانسانية

من هناك ، مسلطا الضوء على المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والطيب صالح يعوض كل هذه الامور بلغة ناصعة مصقولة ،لغة مليئة بالصور الحية ،قوية التأثير ،ساطعة الضوء ... بعيدة عن التعقيد والثرثرة والسطحية والابتذال ،وقد استبدل الحوار المحكي باللهجة العامية الى اللغة الفصحى المبسطة التي تظهر فيها الروح الشعبية الاصيلة ، كما انه يستخدم في رواياته كل الاساليب المناسبة كي ينتج عملا فنيا خصبا اصيلا عصريا تفوح منه رائحة الاصالة والارتباط بالتراث الروائي العربي والعالمي متميزا بعمقه الشعبي .

اننا لانريد ان نتعرض في بحثنا هذا لامور موغلة في الغموض قد لانستطيع الكشف عن مكنوناتها بل سنعمد الى معالجة مسائل هي اقرب ماتكون الى المحسوسة منها الى المستشفة من وراء العمل الفني ،وهنا نستطيع القول ان اعمال الطيب صالح ميدانا واسعا وكبيرا لمن شاء البحث ،ففي كل جزء من الكل المتكامل نبع يصعب ان ينضب والحقيقة انه خطأ كبير ان يؤخذ عمل قصصي للطيب بمعزل عن باقي اعماله ،فمن الامور اللافتة للانتباه ذلك التكامل الواضح في مجموعته الروائية والقصصية فشخصية ماتواجهنا في الاعمال ناضجة في فترة الكهولة يستمر دولاب الزمن في دورانه حتى الشيخوخة فالموت ،وفي عمل اخر نواجه ولادة هذه الشخصية ونشوءها ،وقد تكون احدى شخصياته محورية في عمل ،وتواجهنا هامشية في عمل اخر ، اشخاص عائلة واحدة لكل منهم ميزات ينفرد بها وهذه ظاهرة تستحق الوقوف عندها طويلا .

اردت مما ذكرته في السطور السابقة ان ابين صعوبة تخير عمل منفرد للطيب ودراسته بمعزل عن باقي اعماله لانني عندما حاولت دراسة " ضوء البيت " (١) ، اضطررت الى متابعة " مريود " النصف الاخر من الرواية ،وهناك اعمال اخرى للمؤلف يمكن متابعة شخصيات " بندرشاه " و " مريود " فيها .

وهكذا وجدت نفسي في رحاب " الطيب صالح " و امامي اعماله الكاملة التي استطعت ان اخرج منها بنتيجة مفيدة قادتني الى التركيز على ظواهرها اللافتة للنظر والمنتشرة في كل اجزائها .

وقد اخترت منها " الزمن " و"العلاقة بين الحفيد والجد" و" المرأة" . انها ثلاثة عناصر سوف تتركز عليها دراستي وسنجد من خلالها ان اعمال الكاتب انما هي ترجيعات لأزمنة مضت ولم يبق منها الا شذرات تخطر على باله بين وقت واخر،يحاول ان يسترجع تلك اللحظات وكأن استرجاعها يعني له عودة يحلم بها ويراها قمة لانتصاراته . يحاول فينجح احيانا ويخفق احيانا اخرى ،ففي اولى البدايات لرواية " مريود" عندما كانت لاتزال تتململ تحت الصخر تريد ان تتفجر يقول واضعا هذا الشوق وهذه الرغبة للعودة ،في نجوى داخلية عندما كان يمشي في قريته السودانية النائية " ود حامد" (عصارة الحياة كلها في ود حامد) ، شدد قبضته على المقبض العاجي،مقبض عصا الابنوس ،ومضى بعزم يضعف ويقوى. غريبة تلك العصا الانّ كأنها امرأة عارية وسط رجال ،يحس ملمسها ويتذكر مريم) . سأقف عند "مريم" هذه التي تقوده الى ذكراها كل الاشياء (ذلك الصوت ذلك الشباب) وهنا يعود بنا الى الماضي فعلا (يخرج من داره كل يوم عند الفجر ،ويمشي هذا المشوار حتى النهر . يسبح ويعود مع الشروق ،يحاول ان يوقظ الاشباح النائمة في روحه . احيانا يؤاتيه الحظ ،فيسمع

ويرى) . وهنا يوقفني الحذر الخوف من الوقوع في خطيئة قد تكون قاتلة . فالتعامل مع اشيائه يبدو معقدا، الازمنه متشابكة لاماضي ،ولا حاضر ولا مستقبل كلها تتوحد في سلك يعرضها امامنا، وهذا امر سأقف عنده فيما يأتي من الدراسة .

(الرؤى والاصوات كأنها تنبع من تحت قدميه ومع خبط عصاه على الدرب هنا كان مكان النورج ايام الحصاد ..... محجوب وعبد الحفيظ والطاهر وسعيد وهو يغمض عينيه . يراهم كما كانوا. متحركين ابدا ،يجرون يقفزون .... ينقر بعصاه على جذع شجرة . يسمع ضحكة جده يرى وجهه واضحا ... يتذكره الان بخليط من الحزن والحقد . لقد اختاره دون سائر ابنائه ليكون ظلاله على الارض وخلق له الدار وفروة الصلاة وابريق النحاس والسبحة والصندول ،وهذه العصا (١) هل اعطاه جده هذه العصا لتكون له دليلا قادرا على استشفاف الاشياء واستنطاقها لقد رأيناه قبل قليل يسترجع بطرقاتها على الارض ماضيا كاملا ينقر الشجرة فتنبع منها صور وصور وتتولد مشاهد ومشاهد وفكرة التوريث التي عرض لها الكاتب ستتكرر ،وستجد عملا روائيا كاملا يبنى عليها وهو" بندر شاه" والعلاقة مع الجد بشكل عالم علاقة تستحق الدراسة ،فهي تطالعنا في كل اعماله .

بعد هذا العرض للقضايا الثلاث التي سأعالجها في ادب الطيب صالح وهي" الزمن" و" علاقة الجد بالحفيد" و" المرأة" من خلال "مريم" ونماذج اخرى .

آ ـ الزمن في أدب الطيب صالح :

لو اردنا ان نطبق على زمن الكاتب مقاييس الزمن العادى لما استطعنا ذلك سنجد انفسنا مضطرين الى ان نعدو في جهات متشابكة ومتصالبة بل احيانا متعاكسة . ان زمنه هو الحلم ،نعم الحلم هو المعادل للزمن عنده . اذ فيه ينتفي الماضي والمستقبل ،(وجهه متوتر كأنه يقاوم رغبة جارفة للبكاء . انظر يمينا هناك اين غابة الطلع الكثة التي كانوا يلعبون فيها ايام الطفولة رائحة البرم، زهر الطلع .... يخرج من داره كل يوم عند الفجر ويمشي هذا المشوار حتى النهر يسبح ويعود مع الشروق . يحاول ان يوقظ الاشباح النائمة في روحه . احيانا الحظ يؤاتيه ،فيسمع ويرى) ٢) ،ويأخذنا الى عالم سموعاته واشيائه الكونية (طغت خشخشة الجريد اليابس على الاصوات في خياله فأنتبه) (٣) ،ولكن هذه الاستيقاظة الاليمة لاتستمر ،كأن في ذاته رغبة لالبكاء فحسب بل لاسترجاع كل الماضي ،هل يقف امام الحاضر بشكل يرى فيه العجز والعقم . هل يحس بالاشياء حوله عاطلة ،ويسمح لنفسه بالتفكير ، انه قد ادى دوره في زمن مضى والان اصبح مستحيلا عليه ان يتعامل مع الحاضر الا باسترجاع ذلك العطاء المنقضي ليثبت لنفسه انه اكبر من مخلوق عادى،ولكنه لايفيق الا ليغيب عن عالم اليقظة من جديد (اصغى لجريد النخلة في هبوب الريح شل هيكل عظمي في اكفانه ،شاخت الان . تلك النخلة كما شاخ هو ،وقد كانت في شبابها تثمر ابكر،وتعطي اكثر) (٤).

---

(١) : مريود ص ١٤ ـ ١٥

(٢) : مريود ص ١٣ ـ ١٤

(٣) : مريود ص ١٧

(٤) : مريود ص ١٧

ولا اظن اننا نسينا انه قد كان وهو الحفيد يعطي اكثر وهو لايزال في سن مبكرة (... زرعها بيديه منذ اربعين عاما واطلق اسمها على " مريم " تسمية مريود ويسميها مريوم) (١) ،فهذه القفزة الزمنية يتجاوز فيها تهالكه امام الذكرى الحزينة " لمريم " الى عالم اخر (وفجأة ارتعد جسمه كله كأن الموت قد وضع يده الباردة على كتفه ،كاد يستسلم في ذلك الفجر ،لم تكن سنه تزيد على السابعة يوم القاه جده في ماء النهير يعلمه السباحة) (٢) . وقبل ان اعرض للزمن في قصة قصيرة للكاتب سأحاول ان اجد تعليلا لهذه الظاهرة في ادبه ، فلا بد ان يكون وراء هذا الخروج على تقنية الرواية العربية هدف ما ،هدف يدفع الكاتب في سبيله كل مايستطيع ويوظف له مجمل عمله شكليا قد تكون بنية الرواية لديه باعتمادها على عالم الاسطورة هي التي تستدعي هذا الزمن غير المتزامن لان تركيب الاسطورة غير محدود بحدود منطقية لافي الزمان ولافي القدرات .. كأني به يريد ان يرتفع ببلدته الصغيرة النائية " ود حامد " الى مصاف الامكنة الخالدة حيث جرت الخوارق . ففي هذه القرية كل شيء له طابعه الخاص والمتميز ،له طعم لاهو بالعربي الخالص ولاهو بالافريقي الخالص ، الاسطورة لديه منسوجة من خيوط محلية لكنها متحايزة ، اومن خيوط مستوردة فيها غرابة ولكنه يجهد نفسه كي يظهرها طبيعية ،يستخدم الموروث الاسلامي والافريقي ويقوم بعمليه مزاوجة ناجحة .

(١) : مريود الصفحة ١٧

(٢) : مريود الصفحة ١٩

وفي قصة قصيرة نشرها المؤلف في مجلة الدوحة تحت عنوان " الرجل القبرصي" يمكننا الوقوف قليلا عند زمن الطيب صالح عندما بدأت بقراءة القصة كنت اهيئ ذهني الى سماع اخبار رحلة قام بها المؤلف الى قبرص ،لأعايش لحظات زمنية مرت عليه كنت انتظر منه ان يرسم لي صورة اطارها محدد الجنبات مكانا وزمانا منسجم اللحظات لاتداخل ولا مراوحة ولكني وجدت الواقع غير هذا ،وجدته يمتد بالامكنة وينشر وحدة تجمع الواقع بالحلم ،رأيته يقوم بمزاوجة ما بين" نيقوسيا وقريته " ود حامد" التي تسكن عالمه وتبحر معه انى ذهب ،وتنغرس في كل زاوية يجلس فيها " ود حامد" المكان الذى يستجم فيه ويرتاح من ضوضاء العالم وقسوة الواقع المعيش (ثم سكنت وسكتت الاشياء حولي وانحسرت الضوضاء وجاء صديقي الطاهر والرواسي وجلس الى جانبي على الكنبة امام سعيد ،وكان متهلل الوجه نشطا وممتلئا عافية (١) ،في القصة يعرض الكاتب رجلا قبرصيا يضعه في كفه موازنة للطاهر والرواسي ويوازن بينهما ويعطي لكل منهما هوية فالرجل القبرصي يقول (كونت ثروة كبيرة ، اشتغلت مثل العبد عملت ثروة الان لا اعمل، اقضي وقتي كله في الفراش ... كم تظن سني ؟ يجيبه " " سبعون" ويضيف محدثا نفسه لم يؤلمه ذلك كما قدرت ولكنه ضحك ضحكة مجلجلة وقال : خمس وسبعون :في الواقع ولكن ما من احد يعطيني اكثر من خمسين) (٢)، هذا هو القبرصي ، اما ود الرواسي فانه لذلك يبدو اصغر من سنه ويسأله الكاتب

(١) مجلة الدوحة عدد يناير ١٩٧٦ الصفحات ١٠٥ – ١٠٨

(٢) مجلة الدوحة عدد يناير ١٩٧٦ الصفحات ١٠٥ – ١٠٨

(صحيح ليش ما كبرت او عجزت مع انك اكبر منهم كلهم ؟ قال" من وعيت على الدنيا وانا متحرك ما اذكر اني وقفت عن الحركة اشتغل مثل الحصان ،واذا كان مافي شغل اخلق اى حاجة اشغل نفسي بها اقوم وقت ما اقوم ،بدرى او وخرى شرط اصحى على المؤذن اول ما يقول الله اكبر اتشهد واستغفر بعد ما المؤذن يخلص الاذان وقلبي يتطمن ان الدنيا ماشيه زى ما كانت ... انزل اقابل الشمس فوق صفحة النيل واقول الصباح الله :" حبابك ومرحبا بك) (١) كيف يمكنني ان اساوى بين هذين النموذجين ،هذا الموقف الانساني الذى يرتفع الى اعلى درجات الصوفية في تعامله مع اشياء الطبيعة هذا الافق الانساني الذى ينشره على الاشياء حوله فتشعره معه باتحاد صوفي حتى انه لايمتلك نفسه عن التواجد المبهور والمندهش امام الق الصباح،فيرتفع صوته مخاطبا الشمس والصباح " حبابك ومرحبا بك " وهنالك مقارنة اخرى يمكن ان تجرى بين القبرصي وود الرواسي وهي نظرة كل منهما الى المرأة . القبرصي يراها متعة بل اكثر من هذا سلعة يساوم على ثمنها ،لاينظر اليها على انها الانسان الذى يضفي على الحياة معنى انسانيا اما الطاهر فانه يمكنني رصد ذلك من خلال نظرته الى امه والى زوجه اما زوجته فانه يراها .الاشعاع الاكبر في حياته الذى ينير له الدرب . انه يستيقظ ويذهب لمقابلة الشمس كما تقدم ويعود ليجد زوجته وقد اعدت له الشاى لقد قال الطاهر جملة صغيرة توجز كل ما نريد معرفته عن نظرته الى زوجته فاطمة : فاطمة بنت جبر الدار هالله الله ،واما نظرته الى امه ففيها التقديس والتقدير والحب : (ما رايت حبا مثل حب تلك الام : وما شفت حنان مثل حنان تلك الام ،ملت قلبي بالمحبة حتى صرت مثل نبع لاينضب ،ويوم الحساب يوم الخلق بين يدى ذى العزة والجلال ،شايلين صلاتهم وزكاتهم وحجتهم وصيامهم . سوف اقول يا صاحب الجلال والجبروت ،عبدك المسكين يقف بين يديك خالي الجراب مقطع الاسباب ،ما عنده شيء يضعه في ميزان عدلك سوى المحبة) (١) انها طمأنينة في الدنيا والمعنى الانساني في حياته وكذلك هي مخلصة في الاخرة بالمحبة التي سكبتها في قلب ابنها الطاهر لقد كنت مضطرا الى الاستطراد ومعالجة اشياء قد لايكون لفكرة الزمن وتداخله كبير معنى الا اني بمعالجتها هنا اكون قد نوهت باشياء لم يكن يشملها بحثي .

اعود : فبينما كنا نرى الكاتب سارحا في ترجيعات ذهنية بعيدة ، اذا به يستيقظ فجأة طائر الاحلام ذهب بعيدا اختفى ود الرواسي ،واختفت ودحامد بكل تلك الاحتمالات (وحيث كان يجلس رأيت الرجل القبرصي ....يقول ادفع في هذه خمسين جنيها) (٢) ،كان الراوى يشعر بأنه ريشة في مهب رياح عاصفة تتقاذفه شرقا وغربا فطورا " ود حامد " وطورًا " نيقوسيا" يريد ان يصنع لنفسه اتجاها واحدا محددا (ضغطت عيني لاصحو اكثر .. كانت الظلمة والضوء يتصارعان حول المسبح وعلى سطح الماء ....) (٣)الحلم واليقظة .. الظلمة والضوء ... الحاضر والماضي . (كانت الساعة العاشرة حين دخلت الفراش . تحايلت على النوم بوسائل شتى وكنت متعبا سبحت طوال اليوم ،حاولت التحدث الى الطاهر

---

(١) : مجلة الدوحة عدد يناير عام ١٩٧٦ الصفحات ١٠٥ – ١٠٨

(٢) : مجلة الدوحة عدد يناير عام ١٩٧٦ الصفحات ١٠٥ – ١٠٨

ود الرواسي) (١) ،وهنا يتداخل الزمن المعاش حاضرا والزمن المنقضي لساعات ثم لحظات زمنية مرت منذ زمن بعيد لاتنظمها ضوابط ، انها احداث الماضي التي استحوذت قلبه وملكت كيانه تفرض نفسها على ساعته الحاضرة . نعم ان الازمان لديه تتداخل مع بعضها بلا مقياس او قاعدة .

ب) العلاقة بين الجد والحفيد :(العلاقة بين الماضي والمستقبل) .

الجد شخصية حاضرة في كل اعمال الموءلف ،يوظفها لخدمة السياق بشكل فني مدروس لايحس معه القارىء بالتكلف او يشعربأى انفصال بين موضوع الرواية وهذه الشخصية .

ولابأس ان ابدأ بتعريف الجد والحفيد حسب ورودهما في الروايات وبلسان الكاتب (كانا مثل اخوين توأمين كأنهما اقتسما حصيلة اعمارهما بالتساوى فلا هو يصغر جده ولا الجد يكبر حفيده ما كان اعجب ذلك ،يتسابقان ويصلان معا كتفا بكتف ،يشركان للطير معا،ويصطادان السمك ،ويتباريان في تسلق مستعصيات النخل ،يتصارعان ،يوما عليه ،يدخلان حلقة الرقص معا فلا يثبت امامهما راقص او مصفق وترقص الفتاة بين الجد وحفيده في دائرة جذب مغناطيسي مدمر ،تكثف الحلقة ،ويشتد التصفيق ،وتتأرجح الراقصة كأنها مشدودة بخيوط غير مرئية ،بين قطبي البوصلة ،ترمي شعرها المعطر على وجه المستقبل مرة ،يقتسمان الغنيمة فيما بينهما لاغالب ولا مغلوب) (٢) . هل استطيع القول هنا ان صراعا كونيا يحدث وينكشف ليتغلغل في هاتين الذاتين ذات الجد وذات الحفيد ، ام ان ذلك لايعدو كونه صراعا بين ماض وحاضر،صراع على كل الاشياء ،وهذا التكثيف للقوى ووضعها في الحفيد ،هل يعني ان الحفيد هو الذى يملك قدرة الخلق . هل هو فقط القادر على انزال العقاب او اعطاء المكافأة . لنأخذ هذا المقطع من رواية " بندر شاه " الذى يصور جلسة للجد وحفيده (يقال ان مريود كان يحدد كل منهم عمله ،ويحدد له جزاءه لاتفوته صغيرة ولاكبيرة . كل ليلة تعقد محكمة في الديوان الكبير . يجلس " بندر شاه " الجد والى يمينه " مريود " على كرسيين عاليين على منصة في صدر الديوان ،يصدران الحكم معا ويكون العقاب بالسياط يفعل ذلك " مريود" و" بندر شاه " متربع على كرسيه يسمع ويرى) (١) العلاقة حتى الان فيها تكافؤ لاغالب ولا مغلوب الاثنان يجلسان سوية وعلى نفس الدرجة يصدران الاحكام ولا احد منهما يطغى بحيث يلغي دورا لاخر .

لكن الحفيد لايكتفي بهذا المستوى المتكافيء من العلاقة انه يطمح الى التجاوز ويتجاوزه فعلا ويسطيع ان يترك اثرا في نفسه ،ويزرع في اعماقه غيرة وحسدا (لكن الحفيد في ذلك الصباح ذهب ابعد ولعل صوت الجد في تلك اللحظة كما يتخيله " محميد" الان ،لم يخل من رنة غيرة) (٢) وساعود الى شرح الموقف فيما بعد،واكثر من هذا ان الموقف يتأزم ويصل الحفيد الى درجة الرغبة في التخلص من جده (حينئذ احس نحوه بكراهية مريرة ،ولو ان القارب انقلب بهم وغرق ،لما مد الحفيد في تلك اللحظة يدا لمساعدته (٣) احب ان اقف طويلا عند العلاقة بين الحفيد وجده لاني احس ان هناك اشياء كثيرة يمكن ان تقال

(١) : مجلة الدوحة عدد يناير عام ١٩٧٦ الصفحات ١٠٥ – ١٠٨

(٢) : مريود الصفحة ١٥

(١) : ضوء البيت الصفحة ٧٦

(٢) : مريود الصفحة ١٥ – ١٦

(٣) : مريود الصفحة ١٦

وهذه صورة اخرى قد يكون فيها من النور ما يكفي ليضيء لنا جوانب متعددة ومظلمة من العلاقة ومدلولاتها (لقد تقفى اثره خطوة خطوة وصار مثله ،حذوك النعل بالنعل ،كانت الفكرة تخطر لجده فاذا هي قد خطرت له في عين اللحظة ويقول احدهما الجملة فيكملها الاخر،ويتقاعصان احلامهما فاذا هي تنبع من مصدر واحد) (١) ،وهنا اصل الى ذروة التوحد بين الاثنين حتى في الاحلام كأنهما يستقيان من مصدر واحد ،ربما كان الحفيد يرى في نفسه الامتداد الاعمق والامتن للجد ،ربما كان يرى في ذاته امكانية التجديد في الحياة وامكانية الخلق المتجدد دائما وعلى الصورة المثلى (كان في نظره اشجع الناس واذكى الناس واكثرهم حكمة وهيبة) (٢) ،هذه هي صورة الجد الراسخة في ذهن الحفيد ولدى الحفيد طموح بالتجاوز بل ان الحفيد كان يؤكد ذاته ويضع معالم صورته المستقبلية بحضور الجد فنراه مثلا وبحضور جده يصدر حكما على عمه الذى كان يملأ الفراغ الاكبر قبل مجيء الحفيد ،نراه هنا يصدر الحكم وحده اى يتجاوز تلك الحالة التي رايناه عليها في ،بندر شاه عندما كان الحفيد والجد يجلسان على كرسيهما العاليين ويصدران الاحكام ،هنا الحفيد وهو الذى يصدر الحكم منفردا (قال لعمه نيابة عن جده : انه رجل باطل ،كل همه الجرى وراء النساء كان دون الخامسة عشرة وعمه في الاربعين) (٣) ،قد ابيح لنفسي ان اعمد الى الاسقاط التاريخي في قضية قد تحمل قدرا من الصحة واتساءل لماذا لم يكن احد الابناء مشابها لابيه ؟ لماذا كان الحفيد هو المتميز ؟ بل انه يصرح ان والد الحفيد هذا كان اصغر الابناء واكثرهم خيبة امل لابيه ، واكثرهم تعرضا لسخريته . هل اراد ان يقول اننا كنا نمتلك القدرة على تسيير مدار العالم ثم اتى علينا حين من الدهر كنا اعجز ما يكون عن الاحساس بالنفس والذات ،والان يأتي جيل يستطيع ان يعيد تلك الصورة السحرية الماضية " مريم" "تلك المرأة التي سأفرد لها جانبا مستقلا فيما يأتي من الدراسة ،تشكل احدى العلاقات البارزة التي انعكست عليها علاقة الحفيد بالجد ،لقد كانت "مريم " الحلم الحضارى الكامن في اعماق " مريود" ولكنها الحلم الذى لم يتحقق ،فعندما اصبحت ناضجة واحس بان عليه ان يخطو الخطوة التالية ، ان يتزوجها ،وقف جده في وجه المشروع (يومذاك بدأ يتراجع عن الدور الذي كان جده يهيئه له ،وكان عليه أن يحارب بسلاحه هو،فحارب بسلاح جده، وانهزم(١) وجوانب العلاقة مابين الحفيد وجده كثيرة ولكني سأعمد الى دراسة موقف يعتبر نقطة التجاوز الحقيقية . كأن الجد لا يريد ان يموت قبل ان يطمئن الى انه قد بذر بذرة صالحة قوية يمكنها ان تكون استمرار القوة والعظمة فيه ،بل ان الجد في سبيل ذلك كان يدفع حفيده الى طرقات يكمن بجوانبها احتمال الموت (كاد يستسلم في ذلك الفجر . لم تكن سنه تزيد عن السابعة يوم ألقاه جده في ماء النهر يعلمه السباحة ، اخذ يضرب بيديه ورجليه في الماء على غير هدى والجد على مبعدة منه يناديه بصوت فيه قسوة : اسبح اسبح كيف يسبح ؟ واخذ يغطس ويقلع . وكان

---

(١) : مريود صفحة ١٦

(٢) : مريود صفحة ١٦

(٣) : مريود صفحة ١٦

---

(١): مريود الصفحة ١٦

طعم ماء النهر طعم الهلاك وصوت الجد كأنه صوت قدر اعمى اسبح... اسبح"(١) كانت هذه هي البداية ،وقد نجح الحفيد والتمعت بروق الفرح في عيني الجد ورأى المستقبل لحفيده كبيرا بل انه كان يرى فيه املا لاتحده حدود بشرية . لم يتوقف الجد عندهذهالمحطة بتعليمه السباحة بل ذهب ابعد من ذلك (وذات صباح كاد ينهزم ،قال له جده : ان الوقت قد حان ليسبحا في الدوامة في منتصف النهر ارتعد حين قال ذلك) (٢) ،يمكننا ان نرى في خوفه هذا خوف الانسان من مواجهة المجهول،مواجهة المركز في قوى الاشياء ... مواجهة (الموت الذى يسكن في تلك البقعة من النهر مثل حيوان خرافي مروع ،ومع الخوف بدأ يحس لذة الخطر ،ثم تماسك على نفسه وقد وطن نفسه على الخوض في المخاطر حتى الموت» كان جده ينظر اليه وفي عينيه ذلك البريق ،كان وجهه مقنعا بقناع الموت .. قفز في الماء . وقفز جده ،واخذا يسبحان معا جنبا الى جنب) (٣) ،لماذا لايتركه جده مرة واحدة يحاول الاتيان بشيء متفرد ـ يريد ان يقاسمه كل الغنائم .. انه يحشر نفسه مع حفيده في طرق وان كانت ستوءدى الى الموت ربما كان يفعل ذلك لانه يخاف على شخصيته السقوط امام الحفيد الخارق هذا . لذا اندفع جنبا الى جنب مع حفيده صوب الدوامة بالرغم من ان بينهما خمسين عاما او يزيد الماضي ازاء المستقبل التحدى هنا واضح الماضي يعرض على المستقبل انجاز اشياء تحتاج الى قوى خارقة ،لكنه لايترك فرصة لتحقيق هذا التمايز ،كأنه يطرح نفسه يضاعف التحدى لايريد ان يمنح المستقبل فرصة قد تكون كسبا على حساب الماضي الذى يعتبر الجد نفسه حاميا لحماه ،عندما كنت اقرأ " مريود " كنت اشعر بامتعاض تجاه هذا الجد الذى يسير ابناءه وحفيده باشارات وكان يعجبني شعور التحدى عند الحفيد لكني كنت اطمح الى روءية الجد مهزوما ولو مرة واحدة امام حفيده ،ظلت امنية تراودني لكنها اخيرا تحققت عندما طرح الجد التحدى الاكبر ... الدوامة (عبر الدوامة الى الشاطىء الاخر ورأى جده عائدا من حيث اتى يالله انه فعل المستحيل . بد جده)(١) هذا الفرح الذى امتلكني وذاك الانتصار الذى بهر الحفيد كان للجد تجاهه موقف فلقد امتلأ فرحا كمن يرى نتيجة عمل جاء على شكل اكمل من الحلم (سيحكي القضية لخمد ود حليمه ومختار ود حسب الرسول،وسيقول بزهو كما يقول كل مرة ،محميد صورة طبق الاصل عني الخالق الناطق)(٢) اذا فلا خوف من الانقراض فلقد بذر بذرة جاءت على احسن صورة .

ج) المرأة في ادب الطيب صالح :

وابدأ بـ" مريم" او كما يحلوله ان يسميها "مريوم" هي القاسم المشترك بين كل اعمال الموءلف ،لااجد عملا له كبيرا اوصغيرا الا ويطرح فيه " مريم " باشكال متعددة ،ومنسجمة مع ذاتيته قد يحلق في سماوات بعيدة ،ويرى وينقل لنا مشاهداته وهو على حالة من النشوة والمقدرة الكبيرة ،ويظل هكذا حتى يلتقي " مريم " او حتى تستيقظ فيه نراه عندها

(١) : مريود الصفحة ١٩
(٢) : مريود الصفحة ٢١
(٣) : مريود الصفحة ٢١

(١) : مريود الصفحة ٢٢
(٢) : مريود الصفحة ٢٣

شيئا اخر ،لا احسب ان المؤلف يتعمد ذكرها ،لانني احس بالالم والحزن يعصران قلبه كلما تحدث عنها ،تأتيه " مريم" تلح عليه بكل مافيها من أسرار ورموز وتساؤلات واحتمالات ،تفرض نفسها عليه وعلى حلمه وعلى كل خلاياه ،عندما كان يمشي وحده يتأكله الاسى وبيده عصا الابنوس (غريبة تلك العصا ، الان كأنها امرأة عارية وسط رجال يحس ملمسها ويتذكر مريم ،ذلك الصوت ،ذلك الشباب) (١) ويتجاوز هنا الحديث عنها بسرعة ،لايتوقف كثيرا ،فهي تنتظره في محطة اخرى ستطول كثيرا كأنه يريد ان يختزن كل امكانيات الحزن لديه ليصبها بعد ان يتجاوز امور صغيرة (تسميه مريمود ويسميها مريوم ،رف طيف الصبي مثل برق في افق بعيد واحس اللحظة عابرة مذاق الثمر ،ونهد مريم يضغط على صدره وهما متماسكان في الماء ،كان ثغرها مثل برق يشيل ويحط...) (٢) ، انه يسير بمريم خطوات العمر كلها خطوة خطوة بزمنها واحلامها وواقعها بانتصاراتها وسقطاتها انه يضع احيانا يده على الجرح لكنه في احيان كثيرة يبقينا امام "مريم " هذه ،والسوءال كبير فينا ،ماذا فيها ..؟ لقد تمرنت على اكتشاف الاساليب المختلفة التي تفك من حولها اى حصار مضروب عليها وعلى المرأة في البيئات المتخلفة من المجتمع العربي،تعلمت القراءة قبل ان تدخل المدرسة من شدة شغفها بالاكتشاف والمعرفة وارادت ان تدخل المدرسة مع الاولادفقيل لها...المدرسة للاولاد.. ما في بنات في المدرسة (فقالت في جرأة وعزم خلاص مادام الحكومة لاتقبل غير الاولاد

(١) : مريود الصفحة ١٤

(٢) : مريود الصفحة ١٧

اصير ولد..) (١) ،ثم يقص كيف دخلت المدرسة متخفية بزى صبي حتى انكشف امرها اخيرا (تحولت مريم بين عشية وضحاها بفعل موءامرة الطبيعة والعرف الاجتماعي الى انثى وحسب ،وكذلك حدث انفجار في وجدان محميد " مريود " بدأ وضعه ازاء مريم يتضح ويتحدد ، وادرك انها هي الامتداد الطبيعي لوجوده ،وانها هي التي تعطيه احساسه بنفسه وبموضوعه في نظام الاشياء ...) (٢) ،ولكن ذلك النظام الذى هو جزء فيه لم يستطع استيعاب ذلك ،رفض جده ان يزوجه منها فكان مريود دون امتداد طبيعي ،ولم يجد من يعطيه احساسه بنفسه وبموضوعه في نظام الاشياء فكل ما نجده في بناء السرد لديه ظاهريا – انما يعكس حالته في الحياة العاجزة عن المقدرة في التموضع الصحيح ... حرمانه منها افقده فرحته في البناء الفعلي لما كانت تبنيه هي في الحلم (كان العطر الذى لاحقني كل تلك الاعوام يعبق في ارجاء الكون يذكرني بمريم تعد على اصابع يدها وتقول "محمد محمود حامد حمد حمدان .." الابناء اكثر من الاسماء يامريوم ،تضحك،وتقول "نتمهم عشرة بالبنات"....

اغيظها بضحكي ،واسألها عن اعمال اولادنا ،فتفكر بحزم وتقول وهي تعد على اصابع يدها احمد يطلع مدير " مدير شنو" مدير اى حاجة ماشاء الله ،ومحمد؟ "يطلع محامي ،محمود يطلع حكيم ،حامد كمان يطلع حكيم .. حمد يطلع مهندس الباقين اذا طلعو اولاد وبنات يكونوا كلهم معلمين او حكماء " البنات يكونوا كلهم معلمين او حكماء " البنات كمان ليه

(١) : مريود الصفحة ٧٧

(٢) : مريود الصفحة ٧٧

لا ؟ ... اضحك واتقلب في الرمل من شدة الضحك ،فلم اكن قد بلغت الثالثة عشرة بعد وكانت مريم دون العاشرة)(١) اظن انه صار بامكاني ان اطلق عليها تسمية " مشروع حضارى " وانا مرتاح هذه الطفلة المرأة ترى انها تستطيع تحقيق كل الاشياء ،لقد ارادت ان تتعلم وفعلت وها هي الان تضع لبنات حالمة في بناء جديد ،كل ما فيه حضارى جديد،لا اثر للجهل والتخلف (تسكن البندر سامع البندر المويه بالانابيب والنور بالكهربا والسفر سكة حديد ، الله يلعن ود حامد .. فيها المرض والموت ووجع الرأس ...)(٢) ، وكانت لاتزال دون العاشرة لقد وقف جده في وجهه وقال لا . اخفق في ان يتزوجها ليكملا مشروعهما الحلم ،ويؤسسا ذلك المجتمع الجديد المتحضر ... اخفق ذلك ولكنه ظل يعيش وفي اعماقه شيء من حلمها ولكني ارى انه يعرض نفسه علينا باحتمالات قليلة وانه ضعيف منهار ينقاد للخارجي والثانوى (يومذاك بدأ يتراجع عن الدور الذى كان جده يهيئه له . وكان عليه ان يحارب بسلاحه هو محارب بسلاح جده وانهزم وذهب ولم يعد الا بعد ان انتهى كل شيء (يمكننا هنا ملاحظة قصر اللحظة الفاصلة بين رفض الجد ورحيله هو وبين عودته اليها وهي ميتة) في تلك العشية ،حين حمل جثمان مريم في ذراعيه كان كأنه يعود القهقرى الى نقطة البدء حين كانت كل الاحتمالات قائمة (٣)،يفيق " مريود" متداعيا لايقوى على مواجهة شيء (هنا هب واقفا بعزم ، اعضاؤه بعضها يأخذ بتلابيب بعض ،والالم في قلبه اعظم كثيرا من الالم في مفاصله وظهره وساقيه .... بعدها ذهب يضرب على الدرب حاملا يأسه صوب النهر)(١) لم يمت الامل في قلب " مريود " بانبعاث جديد لها انها الانسان الذى يموت ليبعث من جديد على احسن آيات الانبعاث ، انها الحلم الذى يختفي ليعود بأجمل صور السعادة والحبور (دفناها عند المغيب كأننا نغرس نخلة او نستودع باطن الارض سرا عزيزا سوف تتمخض عنه في المستقبل بشكل من الاشكال ....)(٢) ، انها المرأة المتميزة ذات اللون المتميز والحلم المتميز والنظر المتميز ،لقد كانت كما ترى في مريود طريقها الى تحقيق ذاتها في تحقيق رسالتها فكانت تحرص عليه تخشى ان تصيبه مصيبة . كانت احيانا الحبل الذى يشده الى مركز العالم ،الى اشراقة الحياة . " مريم " لقد خافت ان يموت حلمها الحضارى بموت " مريود " حبيبها رأته يتجه صوب دوامة النهر فارتفع صوتها تناديه (وبدأ حس الدوامة يعلو والنداء يشتد وفي برهة لمح وجه مريم ،سمع صوتها يناديه " يامريود يامريود ")(٣) وهنا يتصاعد الصراع الذى يتجاذبه منذ البداية ،صوت الجد يدفعه نحو الدوامة وخوف " مريم " المرأة عليه وخوفها على الاولاد العشرة الذين يسكنون فكرها (واخذ الصوتان يتجاذبانه واخذ صوت الدوامة الكونية يعلو حتى طغى على الاصوات كلها . لايذكر اين كان جده حينئذ انقطع الحبل الذى كان يربط بينهما اصبح وحده ازاء قدره (٤) هذا هو

---

(١) : مريود الصفحة ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢
(٢) : مريود الصفحة ٧٠
(٣) : مريود الصفحة ١٨

(١) : مريود الصفحة ١٨ - ١٩
(٢) : مريود الصفحة ٦٩
(٣) : مريود الصفحة ٢٢
(٤) : مريود الصفحة ٢٢

التواجه الذى يكشف قدرات احدنا على تحقيق الذات . غابت مريم وهي التي لاتغيب ابدا ،وغاب جده الذى كان حاضرا في كل خطوة من خطوات حفيده ،وفي قرارة الموجه نرى " مريم " تتربع على عرش تفكير"مريود " من جديد ،وكأنه يريد ان يوءكد التزامه بالسير على خطواتها (لم يعد يسيطر على قوى جسمه وحسه ولا على قوى النهر وحسب بل على كل احتمالات المستقبل ،الخوف جاء بعد ذلك فتح عينيه كمن يخرج من كابوس ورأى اول مارأى طيف " مريم " يرف فوقه) (١) ، اذا فغيابها عن عالمه للحظات كان كابوسا ، ان مريم هذه نموذج متميز للمرأة ،ولكننا لانعدم نماذج نسائية اخرى متميزة هي الاخرى ،وان كانت على شكل اخر من النموذجية ،نرى المرأة التي تريد تحقيق هدف ما ،تقتنع به ،تعمل له ،تصل اليه في النهاية ،وان كان الوصول احيانا لايعدو لحظات وينقضي مثل زواج بنت العربي من بلال ذاك الزواج الذى اختارته هي واصرت عليه ولكنه لم يدم سوى ليلة واحدة كانت ثمرته " الطاهر ود الرواسي " الذى مر معنا ذكره فيما سبق وكذلك نجد في رواية " عرس الزين ""نعمة" تتزوج من الزين بالرغم من عاهته وجمالها وذكائها الخارق ،لقد اختارت ونفذت وتعاملت معه بصدق ولم تأبه لكل الذين تقدموا لخطبتها ،والنماذج الاخرى كثيرة ولكني سأقف بشيء من التفصيل عند نموذج غريب نوعا ما هو " حسنه " ارملة " مصطفى سعيد" بطل رواية " موسم الهجرة الى الشمال " ان دراسة هذه الشخصية ،بل ان مواجهتها شيء مذهل ومفاجيء فهذه المرأة العادية تقف في وجه الاعراف القاسية في وجه المجتمع الذى يفرض ذاته على كل الموجدات لكنها تقف وتصمد وتنتصر ،وان كان ذاك الانتصار رفضا دمويا وضع نهايتها كبداية لكل النهايات المشابهه ،لقد كانت صرخة احتجاج وكانت اشارة خطر في عالم لاتفعل فيه المرأة شيئا الا الاستسلام والانقياد ،ولكن " حسنة " هذه صرخت في وجه الموجود ووضعت لبنة في بناء الغد ولنستمع الى هذه الفقرات التي تلخص لنا الموضوع بعد ان غرق " مصطفى سعيد " بقيت زوجته " حسنه " ترعى اطفالها الذين كان الراوى في القصة وصيا عليهم وكان في " ود حامد " رجل عجوزا لا هم له سوى الزواج من كل امرأة يموت زوجها ،وهنا نجده يوسط الراوى كي يقنع " حسنة " من اجل ان تتزوجه وفعلا يتدخل الراوى ليقول لها :(التعلق بالماضي لاينفع احدا وعندك الولدان وانت مازلت شابة في مقتبل العمر .... اجابت فورا بحزم ، الامر الذى ادهشني " بعد مصطفى سعيد لا ادخل على رجل " ... ود الريس يريد زواجك ،وابوك واهلك لايمانعون ،كلفني ان اتوسط له عندك ... اذا اجبروني على الزواج فانني سأقتله واقتل نفسي (ويقابل الراوى ود الريس ويخبره برفضها) لافائدة انها لاتريد الزواج اطلاقا لو كنت منك لتركت هذا الموضوع البته لم اكن احسب ان الخبر سيقع عليه كما وقع فعلا ولكن " ود الريس " الذى يبدل النساء كما يبدل الحمير ،يجلس امامي الان وجهه ويده وجفناه يرتعشان وعض شفته السفلى حتى كاد يقطعها .. خلع حذاءه من رجله اليمنى ولبسه عدة مرات وكان متأهبا للقيام ثم يجلس

---

(١) : مريود الصفحة ٢٢

ويفتح فمه كأنه يريد ان يتكلم ثم يسكت ،يالللعجب هل معقول ان ود الريس عاشق ؟ قلت له " لن تعدم امرأة غيرها تتزوجها ")(١) انه القهر الذى يتصاعد حتى يبلغ ذروة يعجز الانسان معه على الروءية الضباب يغلف الاشياء يرى ابعد النقاط في متناول يده ،يمد يده يحاول ان يستلم الاشياء حلوة ويهم بأن يخطو خطوة خطوة نحو النهاية التي لاتبعد عنه انه .. الوهم .. انها الهاوية التي سيقع فيها " ود الريس " انه لايعرف ان هناك نهرا يحمل موتا وهو لايمتلك شيئا كي يعبر من فوقه ،لايعرف ان المسافات التي تفصله عنها لايقوى على تجاوزها .. انه لايعرف هذا والويل له عندما يكشفه ، ويخطو ثم لايسمع الا تحطم ذاته على صخرات الجرف ،رده يقول (لن اتزوج غيرها ستقبلني وانفها صاغر ،هل تظن انها ملكة او اميرة ؟ الارامل في هذا البلد اكثر من جوع البطن ،تحمد الله انها وجدت زوجا مثلي ،قلت له :(والحديث هنا للراوى) ان كانت امرأة كسائر النساء فلماذا الاصرار (... انها ستتزوجني رغم انفك وانفها ، ابوها قبل واخوتها قبلوا ،الكلام الفارغ الذى تتعلمونه في المدارس لايسير عندنا)(٢) هذا هو زمن القهر بعينه ... اننا نريد حلا فيه انتصار لهذه المرأة ،نريد لها ان تصمد وتنتصر على جهل وعنجهية ابيها واخوتها واعراف بلدها التي تصادر حريتها في الاختيار وتعارض ابسط قواعد الاخلاق والمثل ،كنت اخاف من سقوط واستسلام هذا الطموح في وضعية هذه المرأة التي تخالف كثيرا من نساء بيئتها ، وتتصاعد احداث هذا المأزق ،يحاول الراوى ان يجد نصيرا له يقف الى جانبه لمساعدة هذه المرأة ،يفزع الى صديقه محجوب الذى يثق به كثيرا ولكنه لايجد عنده الاصدى لكلمات " ود الريس " (المرأة للرجل والرجل رجل حتى لو بلغ ارذل العمر)(١) ويحاول ان يسبغ محجوب على كلامه مسحة من التبريركي يبعد نفسه من الوقوف الى جانب هذه المرأة في مواجهتها للمجتمع... (الدنيا لم تتغير بالقدر الذى نظنه ، تغيرت اشياء طلنبات الماء بدل السواقي محاريث من جديد... لكن كل شيء كان (قلت لمحجوب) ولكن لماذا هذا الغرام الفجائي ؟ ود الريس يعرف حسنه بنت محمود منذ كانت طفلة ،هل تذكرها وهي طفلة شرسة تتسلق الشجر ،وتصارع الاولاد؟ كانت وهي تسبح معنا عارية في النهر)(٢) هذا هو النموذج الذى يعجب الطيب صالح، انها المرأة المتميزة منذ الطفولة لقد كانت تصارع الاولاد ،وتتسلق الشجر ،ثم انها كانت تسبح عارية في النهر ، انها تضع نفسها جنبا الى جنب مع الرجل في محيط ،الرجل فيه كل شيء ، انها منذ البداية كانت تتسلق طرقات ستوصلها حتما الى هذه الخصوصية في المحيط النسائي ، لم تكن تشعر بالفرق بينها وبين الرجال في صغرها ،فكيف ستخضع الان لحكم صادر عن مجتمع ينظر اليها على انها الاقل اهمية وهي الكبيرة الناضجة ... لابد وان تكون المواجهة صعبة . رجل في ذهنه مفاهيم خاطئة ،وامرأة لاترى اى موجب يمنعها من الدخول في صراع مع اعتى الرجال ،لإيمانها بحريتها وكرامتها وعدم اقتناعها بأمر يراد ان يفرض عليها ... لابد وان تكون المعركة حامية الوطيس ،وها هي امرأة تصفها لنا

---

(١) : موسم الهجرة الى الشمال الصفحة ٩٨-٩٩
(٢) : موسم الهجرة الى الشمال الصفحة ١٠٠
(١) : موسم الهجرة الى الشمال الصفحة ١٠٢
(٢) : موسم الهجرة الى الشمال الصفحة ١٠٣

تقول : (الفعل الذى فعلته بنت محمود لايجرى به اللسان شيء ،مارأيناه ولاسمعنا بمثله لافي الزمن السابق ولا اللاحق ... بعد صلاة العشاء بزمن استيقظت على صراخ حسنه بنت محمود" في دار ود الريس " كان البلد ساكنا لانسمع فيه حسا ،الحق لله ، انني ظننت ان ود الريس اخيرا نال حقه منها . الرجل المسكين اشرف على الجنون اسبوعين مع المرأة ،لاتكلمه ولاتدعه يقربها ،وفتحت اذني مرة اخرى ،وهي تصرخ ضحكت وانا اسمع صراخها ،قلت في نفسي " ود الريس" ماتزال فيه ،بقية ،واشتد الصراخ ..... واخذ صراخ بنت محمود يشتد ،ثم سمعت ود الريس يصرخ بأعلى صوته : " يابكرى" ياحاج احمد ياجماعة بنت محمود قتلتني قفزت وثوبي يجرجر ورائي الى باب " ود الريس " ... ثم اجتمع علينا الناس ونحن نكسر باب الحوش سمعنا صرخة . صرخة واحدة تهد الجبال من " ود الريس " ثم صرخة مثلها من بنت محمود ... وجدناهما في غرفة " ود الريس الصغيرة المطلة على الشارع كان الصباح موقدا " ود الريس"عار كما ولدته امه . وبنت محمود ثوبها ممزق وسراويلها هي الاخرى عارية ،كان البوش الاحمر يعوم في الدم . ورفعت المصباح وجدت بنت محمود معضوضة ومخدشة في كل شبر من جسمها ... عض حلمة نهدها حتى قطعها ،الدم يسيل من شفتها السفلى.. " ود الريس " مطعون اكثر من عشر طعنات في بطنه وصدره ... وجدناها على ظهرها والسكين مغروزة في قلبها ،فمها مفتوح وعيناها يتحلقان كأنها حية ... كانا قد ماتا لساعتهما ،كان الدم حارا يبقبق من قلب بنت محجوب وبين فخذى ود الريس) (١) لقد نفذت وعيدها ،وحققت اصرارها الرافض للتصالح مع مالاترغب فيه قتلته وقتلت نفسها ،لتعيش اخريات ،وليموت الخوف في قلوب ،والغرور في قلوب .

... قد تكون هناك حاجة لاحداث هذه الهزة او الهزات ،" ود حامد " زلزلت كلها كما لم تزلزل من قبل ،الناس فيها اصابهم مس من الجنون والذهول لم يستطيعوا ان يستوعبوه ،واظنهم سيظلون طويلا حتى يستوعبوه .

اكتفيت بهذا القدر من الدراسة التي اشرت في مقدمتها الى السبب الذى شدنني الى اعمال " الطيب صالح " هذا الاديب الذى اشرت في البداية الى قدرته المتميزة على خلق العمل الادبي الناجح ،بما يوفر له من مقومات القوة والابداع ،عبر موهبته الفذة التي صقلها وغذاها قدر ما استطاع بالثقافة العربية والغربية . وهو يعرض عمله بلغة سهلة ناصعة ،ذات قوة موءثرة ساحرة بعيدة عن التعقيد والغموض والشرشرة والابتذال ،لقد كان الزمن عند الطيب هو الحلم الذى تتداخل فيه الازمنة المختلفة ،وكانت العلاقة بين الحفيد والجد تلك العلاقة التي مثلت احيانا علاقة التكافوء ،واحيانا اخرى الصراع بين الماضي والحاضر ، كما انها كانت تبرز استمرارية امكانية العطاء والابداع لدى الحفيد ومقدرته على تجاوز الماضي المتمثل بالجد ،وفعلا فقد استطاع في بعض المرات ان يتجاوزه وللحفيد طموحات كبيرة وكثيرة اراد ان يحققها . انها حلمه الحضارى الذى تجسد في"مريم" لكنه فشل لانه كان يجب ان يقاتل بسلاحه فقاتل بسلاح جده وانهزم ،وهذه العلاقة تعزز لنا كثيرا من التساوءلات والاستفسارات التي وقفت عند بعض منها في هذه الدراسة ... اما العنصر الثالث فهو المرأة عند الطيب صالح وقد راينا نموذجها المتميز " مريم " ذلك القاسم المشترك بين كل اعمال الموءلف تلح

---

(١) : موسم الهجرة الى الشمال الصفحة ١٢٦-١٢٨

عليه بكل مافيها من اسرار ورمـــــوز واحتمالات ،فهي المرأة التي فكت الحصـــار المضروب عليها ،وعلى كل نساء بيئتهـــا المتخلفة ،فقد تعلمت القراءة قبـــــل ان تدخل المدرسة من شدة شغفها بالاكتشاف والمعرفة ،ودخلت المدرسة التي خصصـــت للذكور متخفية بزى صبي واختارت خطيبهـا بنفسها وهي دون العاشرة ،وكانت تتطلـــع الى مستقبل افضل ،تتحدث عن اولادهـــــا العشرة الذين يعيشون في مخيلتها بكل ثقة واطمئنان ،وجعلت كل واحد منهم يتصـــدر موقعا اجتماعيا متقدما كالطبيـــــب والمهندس ... وحلمت في ان تسكن بيتـــا بالمدينة تتوافر فيه شروط الحيـــــاة المتقدمة ... لقد كانت تضع لمستقبلهـــا مخططا متكامل الجوانب ، انها المـــــرأة المتميزة ذات اللون المتميز والنظـــــرة المتميزة ،لقد كانت ترى في " مريـــود" حبيبها طريقها الى تحقيق ذاتها فـــــي تحقيق رسالتها .... وهناك نمـــــاذج نسائية اخرى استعرضتها في بحثي ومنهن نموذج متميز جدا ،وهي " حسنه " ارملة" "مصطفى سعيد" بطل رواية" موسم الهجـرة الى الشمال " ،فهذه المرأة وقفت بوجـــه الظروف القاسية متحدية مجتمعها الجاهـل الذى يفرض نفسه على كل الاشياء فـــــي واقعها ،لكنها تصمد وتنتصر ،وان كـان ذلك الانتصار رفضا دمويا وضع نهايتهـــا كبداية لكل النهايات المشابهة ،لقـــــد كانت صرخة احتجاج وكانت اشارة حـــزم في عالم لاتفعل المرأة فيه شيئا ســـوى الطاعة والانقياد ....

وعلى كل حال لابد لي في النهايـــة ان اشير الى جوانب كثيرة في اعمـــــال الطيب تستحق الدراسة ،يمكن للباحث ان يجد فيها ميدانا واسعا وارضا خصبة ،لقـــد لفت انتباهي النيل والصراع مابين العـــرب والغرب المستعمر ،والاسطورة ،والنفحـــات التصوفية والواقع السياسي الذى يسخر منه .

Ce travail aborde l'étude de quelques oeuvres du romancier soudanais AL TAIB SALEH .

Il traite trois questions principales dans les oeuvres de cet écrivain arabe à travers les conditions sociales et les situations humaines auxquelles elles sont intimement liées .

Cette étude analyse également quelques aspects stylistiques dans les oeuvres romanèsques connues de cet écrivain .

المراجـــــــــع

١ – صالح الطيب ١٩٧٠ ذومة ود حامـــــــد الطبعة الثالثة دار العودة – بيروت.

٢ – صالح الطيب ١٩٧٠ ،عرس الزين – الطبعة الثالثة – دار العودة – بيروت .

٣ – صالح الطيب ،١٩٧١ ضو البيت ،الطبعـــة الأولى دار العودة ،بيروت .

٤ – صالح الطيب ،١٩٧٢ موسم الهجرة الـــى الشمال الطبعة الثانية دار العـــــودة بيروت .

٥ – صالح الطيب ١٩٧٨ مريود ،الطبعة الثانية دار العودة ،بيروت .

٦– شكري غالي : ١٩٧١ الرواية العربيـــــة في رحلة العذاب ،القاهرة .

٧ – شكري غالي ،١٩٧١ أزمة الجنس فـــــي القصة العربية ،القاهرة .

٨ – محمدية أحمد سعيد ١٩٧٦ ،الطيب صالح عبقرية الرواية العربية دار العـــودة بيروت .

٩ – نجم محمد يوسف ١٩٦١ ،فن القصـــــة الطبعة الخامسة ،بيروت .

١٠ – نجم محمد يوسف ١٩٦١ القصة في الأدب العربي الحديث الطبعة الثالثة ،بيروت

١١ – مجلة الدوحة القطرية عدد ينايـــــر ٢ك ١٩٧٦ .